



## مناهج الإصلاح الإنساني ومشكلات الفساد

عبد الرحمن السالمي

تضع الآية القرآنية منهجاً متكاملًا لنشر الإصلاح ومكافحة الفساد، وهو يقوم على الإيمان والعمل الصالح لأولئك الذين ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: 83]، ولا يريدون الفساد الذي يخالف مقاصد الاستخلاف الإلهي للإنسان لإعمار الأرض. أما الذين لا يريدون العلوّ فهم الذين تصفهم الآية بأنهم المتقون، وأنّ العاقبة لهم. بيّد أنّ قاعدة ذلك كلّها تشكّل مطلع الآية: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْأَخْرَىٰ نَجَعُهَا..﴾ [القصص: 83]. فالمنهج أو الرؤية هو منهجٌ أخروي أو رؤيةٌ أخروية؛ بمعنى أنّ الميزان الكبير هو ميزانٌ احتسابي، وبهذا الميزان تُوزن مقاييس الإصلاح والفساد، والعواقب؛ أي موازين الربح والخسارة. وتُحيلُ هذه الرؤية الاحتسابية الأمر إلى القيمة الأخلاقية العليا، التي تصبّح المسائل فيها تكليفية من جانب الله سبحانه، والتزامية من جانب الإنسان المؤمن رؤيةً أو نيةً وفعالاً.

ولنبداً من مسألة الصلاح، وقد عبّر عنها القرآن الكريم في هذه الآية بأن المصلحين هم أولئك الذين لا يريدون العلو في الأرض، وهو يتوجه بذلك إلى أولئك الذين يجدون أنفسهم في مواقع السلطة جاهاً أو مالاً أو ولايةً أيّاً تكن، كما تشمل الآية أولئك الذين يطمحون للوصول إلى مواقع السلطة جاهاً أو مالاً أو ولايةً. والقرآن لا ينكر عليهم الحق في الطموح أو الوصول، شريطة ألا يكون ذلك مقترناً بالعلو، والعلو يُطلُّ على ثلاثة معانٍ: معنى اعتقاد الحق في ذلك للنسب أو الجاه أو الإرث أو الكفاءة. ومعنى الغرور والكبرياء، بوصفه الأقدَر، وبعْدَ الآخرين المنافسين أقلَّ قيمةً وفدراً. ومعنى الغلبة بالباطل وقهر الناس. ولنلاحظ أنّ القرآن يذكر ذلك بصيغة الجمع (الذين)، وهو يعني أنّ مريدي السطوة والسيطرة هؤلاء يمكن أن يكونوا جماعةً أو فئةً، وليس فرداً؛ وبذلك يمكن أن يشكّلوا تحالفاً أو مجموعةً متضامنةً للتمكّن من السيطرة المالية أو الاجتماعية. وحتى في الجانب السياسي يمكن أن تكون السيطرة لفئةٍ تصطلح على أحد أفرادها، إلى أن تُتاح له فرصة الاستبداد بالأمر وحده.

القرآن الكريم يقرر أنّ هناك أفراداً وجماعاتٍ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾. وهذه الإرادة تبدو في الرؤية والتصرفات لجهات الوجهة والإمرة والثراء. وقد علّل ذلك بأن هؤلاء احتسايون يبتغون الدار الآخرة؛ لأنهم متّقون، وذكر في آيةٍ أُخرى أنّ هذه المواصفات يمكن أن توجد في فئاتٍ ليست لها سلطةٌ ولا تطمح إليها بأي معنى؛ لكنها تريد الإصلاح وتسمى إليه: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]، وهم هنا أيضاً مفلحون بالنظر للعاقبة الدنيوية والأخروية. ومعنى ذلك أنّ القرآن يفيد أنّ مجتمع المؤمنين فيه فئاتٌ في السلطة أو تطمح إليها، وهو يطالب جماعة المؤمنين بأن تكون منهم أمةٌ تدعو إلى الخير، وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر. ومع ذلك فإنّ هاتين الفئتين أو تلك الفئات يمكن أن تجتمع على منهج واحد بالنظر

إلى الاحتساب الذي تشملها روحه؛ لأنها مؤمنة وتريد العمل بمقتضى إيمانها؛ أي تريد أداء العمل الصالح على هذه الأرض التي استخلفهم الله ﷻ عليها. على أن ذلك إن كان لا ينفي وجود الاختلاف، وإمكان التناضح والتأزر؛ فالمسلمون جماعة واحدة، يُجبر عليهم أديانهم، وهم يدُ على مَنْ سِوَاهُمْ.

النهج القرآني في الصلاح والإصلاح هو نهج احتسابي؛ يبيد أن القرآن في الدعوة إلى «الكلمة السواء» مع أهل الكتاب لا يشترط الاحتساب، بل النهج السلوكي المستقيم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]. فالجامع المشترك هو الوحدة المستندة إلى الدعوة الإبراهيمية، والتي يترتب عليها ألا يكون هناك علو ولا استكبار ولا تسلط من جانبٍ على آخر، وهذا هو السبيل لامتداد نهج الصلاح والإصلاح في الأرض بمقتضى الجامع المشترك الكبير، وبمقتضى التعارف الذي يمدُّ جناحيه في المدى العالمي. على أنهم إن لم يستجيبوا فيبقى أن المسلمين مستمرّون على نهج السلم والسلامة والإصلاح فيما بينهم ومع العالم.

وفي هذه الحالة - أي عدم التعاون إِمَّا بالداخل الإسلامي، أو مع الآخرين من أجل استمرار سلام العالم وعمرانه - يردُّ الركنُ الآخر من ركني الاستقرار والاستمرار: تجنب الفساد أو مفارقتة. والقرآن يشهّر في عشرات الآيات بالمفسدين في الأرض والذين يريدون إهلاك الحرث والنسل. وهم يفعلون ذلك لأحد أمرين أو الأمرين معاً: تخيير الآخرين - من الصالحين والمسالمة - بين التسليم لهم بالاستيلاء، أو التخريب من أجل التخريب، مخالفين مقاصد الله سبحانه في الاستخلاف من أجل إعمار الكون. فإن كان هؤلاء مسلمين ظاهراً؛ فإنهم يُعاملون معاملة المحاربين من أجل دفع شرِّهم وعاديتهم. وإن لم يكونوا مسلمين؛ فإنه

ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّهُمُ وَقَسْطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: 8]. ويعني ذلك أن الأصل في التعامل مع الناس - أياً كانوا - هو نهج «التعارف»، والكلمة السواء، ودعوة الخير والبرِّ والقسط؛ أمّا في حالة الإصرار على الفساد والإفساد - وبخاصة ارتكاب جريمتي: الاضطهاد في الدين، أو الإخراج من الديار - فإنّ الدفاع عن الدين والنفس يكون مشروعاً بل واجباً من أجل السلام الأخلاقي والاجتماعي والإنساني.

يشترع القرآن الكريم إذن نهجاً متكاملًا للصلاح والإصلاح قاعدته: التعارف والبرِّ والقسط، والقاعدة الأخرى: عدم العلو، وعدم الفساد. وهو يرى أن يكون ذلك بين المؤمنين قائماً على الاحتساب. فإن كان الآخرون من غير المؤمنين أو المسلمين؛ فالمأمول الالتزام بعدم العلو وعدم الفساد؛ لفائدة ذلك للجميع على اختلاف الأديان والأنظمة الاجتماعية والسياسية. وإخلال الآخرين بالكلمة السواء لا يعني بالضرورة الصيرورة إلى حالة النزاع والحرب، بشرط عدم الاستتار باستهداف الدين أو الدار.

لقد صارت البشرية في القرن العشرين - وبعد تجارب هائلة في العلو، وفي الفساد، وفي الحروب المدمّرة - إلى تكوين تنظيمات أممية وعالمية للوقاية من الفساد والإفساد والتسلط والاستعمار، كما اشترع القائمون على نظام العالم - إضافة لميثاق الأمم المتحدة، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان؛ يبيد أنّ التفاؤل الذي ساد بعد الحرب الثانية ما أفضى إلى حلول للمشكلات المستعصية الناجمة عن العلو والفساد. وقد اختلفت التسميات فجرى الحديث أولاً عن الحرب الباردة، ثم عندما انتهت تكاثر الحديث عن الهيمنة. وما خالط الفساد الهياكل الكبرى فحسب - بسبب صراعات الدول الكبرى - بل تجاوز الأمر ذلك إلى القيم الأخلاقية للأفراد والجماعات. وذلك بحجة الحرية الفردية، والمقاييس

الذاتية لما يجوز فعله وما لا يجوز. القرآن الكريم يتحدث مئات المرات عن المعروف والمنكر، فالمعروف هو ما تعارف عليه الناس من قيم أخلاقية كبرى. أما المنكر فهو بالفعل الفساد الأخلاقي الفردي والجماعي. ومن اللافت أنّ القرآن الكريم يتحدث دائماً عن المفسدين في الأرض، ولا يعدّ الفساد جريمةً فردية، وإن كانت كذلك حقاً فهو يرى أنها لا تظل فردية ولنتأمل قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 25]. وإذا كان الأمر كذلك، بمعنى أنّ المعروف يمكن أن يفارق من البعض، كما أنّ المنكر يمكن أن يُرتكب من البعض؛ فالذي يحدث أو الذي حدث أنّ النظام العالمي توقف عن الضرب على أيدي المفسدين فعَمَّ الفساد، كما أنّ هجران المعروف شاع دون أن يُنكر ذلك كبير أحد. ولذا فإنّ مكافحة فتن العلوّ والفساد تقتضينا النهوض بالدعوة القرآنية لفعل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن لم يكن ذلك احتساباً لأنه أمرٌ كبير؛ فقد يكون الدافع للانتهاز والعودة لسلامة الطبيعة والطريق براغماتياً كما يقال؛ أي لدفع الشر الذي يمكن أن ينال من مصائر البشرية في هذا الزمن الصعب. لقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 251]. فالتدافع يمكن أن يكون بين الظلمة والبُغاة والمفسدين بحيث يضعفون جميعاً. لكنّ الآية تشير أيضاً إلى وجوب الانتصار لله سبحانه في معروفه وخيره وتعارُفه ورحمته وعدله، فالمسؤولية الإسلامية والإنسانية لا تسقط بضعف الأخيار، ولا بعلوّ الأشرار، وإلاّ فما معنى التكليف بالعقل أو بالنصّ؟ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21]، فمعالجة المسائل الكبرى في الصلاح والفساد يكون بمنهجية إسلامية ذاتية، وأخرى عقلانية ومصالحية عالمية، والمقصود المراجعة وفتح الأفق والتفكير بالمشهد العالمي، كما التفكير بالبدائل.

